الأنثروبولوجيا و التاريخ

بقلم د/ أحمد أوراغي – جامعة تلمسان-

تعد الأنثروبولوجيا حقولا دراسية اجتماعية، تاريخية وثقافية، تمثل كل التماثلات المعاشية الفعلية منها والمرجوة لدى الجماعات، والتي يعبر عنها بطريقة شفوية أو سلوكية، والدارسة الأنثروبولوجية لأي شعب من الشعوب لا تعد قفزة في فراغ متقطع، ولا جريا وراء سراب معرفي يشكل تصورا عشوائيا يرتطم بجدران معارف أخرى محيطة به أحيانا وبنفسه وتركيبته أحايين أخرى، لينطوي بذلك على رؤية أحادية غير مؤسسة على أي نوع من المرجعيات المعرفية/العلمية.

بيد أن تاريخ هذا العلم لم يخل من مجالات بين مريديه ومنتهجيه، خصوصا فيما يتعلق بتقاطعه المعرفي مع بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، ومنها علاقة الأنثروبولوجيا بالتاريخ. وقد انقسم الدارسون في معالجة القضية إلى طائفتين اثنتين, طائفة ترى أن التاريخ والأنثروبولوجيا صنوان لا يمكن فك أحدهما عن الآخر، وطائفة أخرى ترفض الفكرة رفضا قاطعا وترى أن التاريخ والأنثروبولوجيا لا تربطهما علاقة معرفية وطيدة الوشائج خصوصا لدى من كان يرى أن "التاريخ" مجرد تسجيل للأحداث الإنسانية، وبذلك لن يعلمنا التاريخ شيئا ما، فالوقائع التاريخية قائمة بذاتها، فلا يمكن أن نتنبأ بالمستقبل من الماضي".1

وقد ظهرت كتابات كثيرة تفحص العلاقة بين التاريخ والأنثربولوجيا، حيث يشترك العلمان في كثير من النقاط، كما يلتقيان في أكثر من موقع، سواء من حيث المنهج أو من حيث الهدف. إن عملية تجميع الحقائق التي يقوم بها الأنثروبولوجي تشبه عمل المؤرخ، وقد أثار ذلك عددا من التساؤلات مثل: ما هي الأنثروبولوجيا إن لم تكن تاريخا؟ إن التاريخ يشير إلى أشياء مختلفة، فهو يعني كل ما يستطيع الأنثروبولوجي أن يكشفه عن ماضي الشعوب التي يدرسها، وكذلك كل ما يتعلمه من كتابات المؤرخين الذين عاصروا تلك الأحداث حول النظم الاجتماعية. فالأنثروبولوجي يهتم بوصف الأحداث والتعرف على الأسباب و العوامل التاريخية التي أسهمت في نشأة الظاهرة الحضارية وتكوينها، وهو بذلك إنما يستخدم مناهج البحوث التاريخية في المجتمعات التي يدرسها، والتي ليس لديها سجلات مكتوبة. وعلى ذلك فإن مناهج الأنثروبولوجيا والتاريخ تكاد تكون متكاملة.2

واحترم السجال بين الدارسين في طبيعة هذه العلاقة، واعتبر البعض أن الفصل بين الأنثروبولوجيا والتاريخ غير ممكن البتة، وقد كتب ميتلند F.W.Maitland عام 1899 يقول : "يجب على الأنثروبولوجيا أن تختار بين أن تكون تاريخا أو لا تصبح شيئا على الإطلاق". وكان ميتلند من المهتمين بالمراحل التتابعية التي يمر بها المجتمع البشري.وقد كرر ميشيل أوكيشوت Michael Oukeshoutt هذا القول"3

كما فصل البعض بين العلمين في طبيعة التعامل مع المادة أو الظاهرة المراد دراستها، دون الفصل التام بينهما، باعتبار أن ذلك لا يرتكز إلى معايير معرفية أكيدة، " فهو ينتج عن الصدفة التاريخية التي تنطوي عليها التقاليد الأكاديمية، وكذلك عن الضرورة النظرية. في الواقع

ولدت الأنثروبولوجيا من اكتشاف أوربا للبشر الغرباء، ومن المحاولات التي جرت في عصر الأنوار لتأسيس الانقطاعات الثقافية بطريقة عقلانية. مهما كانت الشروحات المقدمة متباعدة، فإن قاسمها المشترك هو ترتيب تنوع المجتمعات البشرية بالمقابلة مع العالم المتحضر للمؤرخ والعالم الهمجي المسلم للفضول الإثنولوجي"4

وبذلك فإن الاختلاف بين الأنثروبولوجيا والتاريخ يجد أصله في فكرة وجود نمطين من البشر يجب أن يقابلهما نوعا معارف متمايزان، هذا الاختلاف كامن، إذن، بالجوهر في ميدان المعرفة.5

وقد رأى كثير من الدارسين أن علاقة التاريخ بالأنثروبولوجيا هي علاقة ضدية يحكمها التناقض، خصوصا بعد سيطرة النظرة المثالية الوضعية على علمي التاريخ والسوسيولوجيا (علم الاجتماع)، وذلك ما دفع البعض إلى اعتبار أن التعارض المقبول بين الأنثروبولوجيا والتاريخ يمكن في أن التاريخ يعكف على اعتبار الأفراد كالعوامل الحقيقية الوحيدة للصيرورة الإنسانية، على إحصاء ما يرتبط باعتباطيتهم ويحقق في وقائع فريدة، وبذلك يكتفي التاريخ بالوقائع والحوادث كدليل على حياة الأمم، بيد أن الأنثروبولوجيا تدأب على عرض الأشكال الواسعة للحياة الجماعية، وبالتالي وتتخذ الأنثروبولوجيا ... موقفا ضد التاريخ باعتبار نفسها علما مقارنا وتعميما على مثال العلوم الطبيعية، وزيادة على ذلك فهي تسند هذا الادعاء على مبدأ نشوئي الملامح : قد يسهل كشف القوانين التي تحكم الحالة الاجتماعية عبر استكشاف الأشكال البدائية للرابط الاجتماعي (دوركايم 1912).6

كما أن البعض اعتبر أن الأنثروبولوجيا تختلف عن التاريخ لا من حيث الهدف أو المنهج وإنما من حيث التأكيدات التكتيكية، وقد مدد "نادل" (S.E Nadel) هذا الاختلاف في عبارة يقول فيها " حين ننظر إلى العلاقة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ، فإننا نرى أن العالم الأنثروبولوجي الاجتماعي ليس مؤرخا، فالمؤرخون يدرسون الأحداث والوقائع التي مضت وانقضت، ولكن الأنثروبولوجي إنما يدرس ويصنف ما يوجد هنا والآن". أما التاريخ والمؤرخ فلا دخل له بالحاضر، وإنما يدرس الأحداث والظاهرات السابقة، لذلك فإن أهداف الأنثروبولوجيا تكون أكثر وضوحا من أهداف التاريخ خاصة فيما يتعلق بالمقارنة والتعميم.7

كما اعتمد أنصار نظرية التعارض بين التاريخ والأنثروبولوجيا على أن المواد الخام للعلم الأول هي المواد الكتابية التي يؤسس وفقها أحكامه، بينما يعنى العلم الثاني بالمواد الشفهية كمصدر لطروحاته ونظرياته, إذ يعتبر هذا الفريق أن هناك اعتبار آخر أيضا للتناقض بين الطابع الكتابي والشفهي لمصادر المعلومات. يبدو أن المظاهر المنهجية لم تعد تهم فيما بعد بقدر ما يهم توجيه المنظار، إذ فضل التاريخ الوثائق المكتوبة والأنثروبولوجيا المواد الشفهية والنظرية، فلأن الأول يستمر وضوحا، بينما توجه الثانية أبحاثها نحو أساساتها اللاشعورية (ليفي ستروس 1958) ...

في الوقت عينه الذي شكك فيه بالأخص الفيلسوف الفرنسي ج.دريدا بوجود انقطاع جذري بين المجتمعات بكتابة والمجتمعات من دون كتابة ومن هنا بالذات، بالقيمة المؤسسة معرفيا لاختلاف الوثائق والمستندات (غودي) بدأت الأنثروبولوجيا تتساءل، لاسيما في الولايات المتحدة عن ظروف إنتاج النص الإثنوغرافي : أولا تنقل ظروف وحالات الكتابة على البحث الإثنوغرافي : أولا تنقل ظروف وحالات الكتابة على البحث الإثنوغرافي كما على الرواية التاريخية أيضا".8

وبذلك اعتبرت الأنثروبولوجيا متعارضة مع علم التاريخ، خصوصا في طبيعة المعرفة التي يقدمها كل علم، فالأول يقدم معرفة ذات طبيعة سردية، أما الثاني فمعرفته تعتمد على الأساس على الملاحظة والمعاينة، و "لا شك أن المفاهيم التي يستعملها الاثنان تملك البنية المنطقية ذاتها (إ. جلنر)، لكن ليس البعد المنهجي ذاته. في الواقع لم تعدل الأنثروبولوجيا عن الطموح الذي كان دوركايم يخص به علم الشأن الاجتماعي، أن تكون مقارنة وتعميمية".9

ويذهب دوركايم إلى أننا لا نستطيع أن ندرس الثقافة دراسة تاريخية، كما لا يمكننا أن نتوصل إلى تلك التعميمات أو إطلاق القوانين العامة، كتلك القوانين الفيزيائية التي تحاول مختلف العلوم الاستقرائية اكتشافها والبحث عنها في العلم الطبيعي. وذلك من حيث أن كل العناصر الجزئية للثقافة لا يمكن تفسيرها عن طريق إطلاق القانون أو التعميم، ولكنها تفسر وتحلل فقط عن طريق محاولة الرجوع إلى أجزاء أو عناصر أخرى للثقافة، أي أن كل عنصر ثقافي جزئي إنما يفسر عن طريق محاولة البحث عن أصوله الجذرية و تتبعها في باطن البناء التاريخي لماضي الثقافة برمتها.10

بيد أن الفريق الآخر اعتبر أن علاقة التاريخ بالأنثروبولوجيا علاقة وطيدة -معرفيا- خصوصا، وأن التاريخ وابتداء من القرن التاسع عشر خطأ خطوات هامة، "حيث ظهرت مقاصد وتصورات وطرائق جديدة للتاريخ، وبرز تأثير العلوم الطبيعية وفكرة النشوء والارتقاء، وظهرت مصادر جديدة للتاريخ، وأعلام كبار للتاريخ الحديث واكبوا القرن 19م بكل أحداثه وتطوراته، ومطلع القرن العشرين بإرهاصاته المعاصرة وأحدثوا ثورة كبرى في البحوث التاريخية والإنسانية، وظهرت علوم أخرى أصبحت صنوة للتاريخ في إطار العلوم الاجتماعية مثل الاقتصاد والجغرافيا والآثار وعلم الإنسان والفلسفة والسياسية والإعلام...".11

وبالعودة إلى تاريخ نشوء علم الأنثروبولوجيا نجد أنه انطلق رأسا من الدراسات التاريخية التي تناولت الشعوب التي كانت مجهولة لدى الإنسان الأوربي، خصوصا خلال القرن التاسع عشر، وقد اهتم الأنثروبولوجيون كثيرا بعلم التاريخ، بيد أن ذلك لا يعني أن توظيف المنهج التاريخي والمقاربات التاريخية في الدراسات الأنثروبولوجية يعد انحرافا عن المسار المعرفي للأنثروبولوجيا، أو انصهارا في أفق التاريخ وتغييبا لتقنيات البحث الدراسة الأنتروبولوجية المتعارف عليها دراسيا، فالأنثروبولوجي "ليس مؤرخا بحتا، بعيدا البعد كله أن يكون مؤرخا محترفا، فهو لا يؤرخ للظاهرة الاجتماعية أو الثقافية تأريخا دقيقا قائما على الحسابات و التواريخ الدقيقة".12

إن عمل الأنثروبولوجي هو غير عمل المؤرخ13، فإذا كان الثاني يتناول الظاهرة الانطلاق من تحديد معالمها الزمنية وكذا انطلاقا من نشوئها ومراحل تطورها واستمرارها إلى غاية نهايتها أو زوالها، فإن الباحث الأنثروبولوجي، وإن لامس الطروحات التاريخية، إنما هدفه هو الإلمام قدر الإمكان بموضوعه من حيث الحركة والتفاعل الاجتماعي والثقافي من جهة، ومن جهة أخرى محاولة وصف طبيعة التغيرات والتطورات التي خضع لها هذا الموضوع ضمن البناء الاجتماعي الشامل، فالباحث الأنثروبولوجي في تبنيه للمنهج التاريخي لا يقف عند حدود الوحدة الزمنية التاريخية بل يسعى إلى إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة وليس مجرد

معالجة التتابع الزمني، و لكي يعطي وصفا متكاملا لموضوع الدراسة، فعلية أن يعنى بكل تلك الظواهر التي تقع في نفس الزمن في مجتمع معين أو ثقافة معنية محددة".14

وينظر ليفي ستروس إلى التاريخ والأنثروبولوجيا على أنهما يشتركان في أصل واحد، فهو يذهب مع المؤرخين إلى أن معرفة الماضي تعتبر ضرورية لفهم أية ظواهر اجتماعية، كما أنه يقرر مع الأنثروبولوجيين بأن تتبع تاريخ المجتمع يمكننا من تحديد ماهو دائم في البناء الاجتماعي، أي يجعلنا نتعرف على تلك العناصر التي يكتب لها الاستمرار والبقاء، بغض النظر عن التغيرات الراجعة أحداث مثل الحروب أو الهجرات، و معنى ذلك بعبارة أخرى أن ليفي ستروس يعترف بضرورة التعاون بين المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا، ذلك أن التواصل إلى تعميمات يحتاج منا إلى فحص عديد من الصور والأشكال الاجتماعية في أمكنة وأزمنة مختلفة، حتى نستطيع أن نكشف المبادئ الأساسية للبناء الاجتماعي.15

فالأنثروبولوجيا والتاريخ صنوان لعملية بحثية معقدة في كنه الوجود الإنساني عبر ماضيه وحاضره وحتى مستقبله، و"المعرفة الأنثروبولوجية والمعرفة التاريخية تلهمان الباحث الاجتماعي قدرة مساءلة العناصر الثقافية والاجتماعية واستنطاق حاضرها وماضيها وما أفرزته من بني مادية ومعنوية وسلوكية، كما تؤهل المعرفتان الباحث الاجتماعي إلى كتابة تاريخ الشعوب وتاريخ ثقافتها كتابة حية تختلف عن كتابة المؤرخ المحترف الذي قلما ينزل إلى الميدان الاجتماعي والثقافي الشعبي الذي يؤرخ له، حيث تقف مرجعيته عند حدود الوثائق والكتب – إن توفرت له- فيكتب تاريخ الشعوب من بعيد ويبقى يلامس موضوعه من مكتبه الخاص. وقد يصادفه أحيانا غياب الوثائق والكتب، فيعتمد وقتئذ على تخميناته وتأويلاته الخاصة والشخصية والتي قد تكون صحيحة كما قد تكون خاطئة الأمر الذي ينتج عنه مواقف خطيرة في حق ثقافات الشعوب وفي حق تاريخ الشعوب".16

ومنه يمكن القول إن الأنثروبولوجيا والتاريخ معرفتان متكاملتان، قد تختلفان لكن لا تتخالفان، كما لا يمكن للباحث الأنثروبولوجي إلغاء المناهج التاريخية أثناء دراسته للظواهر الاجتماعية والثقافية والأنماط السلوكية والتعبيرية لشعب من الشعوب، ذلك لا يمكن دراسة ظاهرة ما بمعزل عن تطورها الزمني والمرحلي الذي عرفته عبر سيرورتها ضمن الفعاليات الوجودية للشعب.

الهوامش:

1 محمد علي أبو ريان: العلوم الإنسانية وأزمة مناهجها المعاصرة، مع دراسة نقدية لأسسها وبنيتها اللاهوتية، مجلة الثقافة (وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر)، س16،ع96، ربيع الأول، ربيع الثاني 1407هـ/ نوفمبر-ديسمبر 1986م، ص 63.
2حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري و التطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2003، ص93.
3- المرجع نفسه، ص93.
4- ج. لنكلود: تاريخ و انثروبولوجيا، معجما الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، تحت إشراف: بيار بونت، ميشال إيزار، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (مجد)، بيروت، لبنان، د.ط،د.ت،ص336.
5- المرجع نفسه، ص 336.
6المرجع السابق، ص337.
7- حسين عبد الحميد احمد رشوان: الانثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، ص94.
8 معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ص337.
9- المرجع نفسه، ص337.
10- راجع حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري و التطبيقي، ص20.

11يحي بوعزيز: علم التاريخ بين المسلمين و غيرهم، مجلة الحصارة الإسلامية، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران،ع3، رجب 1418هـ/نوفمبر 1997م، ص166.
12محمد سعيدي: الأنتروبولوجيا بين النظرية و التطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية بالجزائر، أطروحة دكتوراه في الأنتروبولوجيا (مخطوط)، جامعة بو بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، قسم الثقافة شعبية، 2006-2007، ص 29.
13راجع : غي تويليه- جان تولار: مهنة المؤرخ، تعريب: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
14- محمد سعيدي : الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص29.
-محمد عبده محجوب: مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية (منهج وتطبيق)، وكالة المطبوعات، الكويت، 1974، ص98.
15- حسين عبد الحميد أحمد رشوان : الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، ص 94.
16- محمد سعيدي : الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص 30.